منهج دراسة الحالة

يعتبر منهج دراسة الحالة أحد مناهج البحث النوعي، وببساطة تستخدم دراسة الحالة أكثر ما يمكن من مصادر البيانات للتقصي المنهجي للأفراد، أو المجموعات، أو التنظيمات، أو الأحداث. وتجري دراسات الحالة عندما يكون الباحث بحاجة إلى فهم ظاهرة أو شرحها. وكثيرا ما تستخدم في الطب، والأنثروبولوجيا، وعلم النفس، وعلم الإدارة، والتاريخ. وقد كتب سيغموند فرويد دراسات حالة لمرضاه، وكتب الاقتصاديون دراسات حالة لصناعة التلفزيون السلكي لمصلحة لجنة الاتصالات الاتحادية، وغيرها(ويمر ودومينيك، 2013، ص. 253). كما يرى رجاء أبو علام أن بحوث دراسة الحالة تندرج ضمن البحوث الكيفية، بل يطلق على البحوث الكيفية بحوث دراسة الحالة لأنها تركز على الحالات، وليس معنى ذلك أنّ جميع أنواع دراسة الحالة تندرج تحت البحوث الكيفية، فهناك دراسات الحالة التي تعتبر جزء من البحوث الكمية نظرا لاستخدامها أساليب ووسائل تنتمي للبحوث الكمية(محمود أبوعلام، 2006، ص. 295).

1- تعريف منهج دراسة الحالة

يعرّف روبرت ين (Robert Yin) منهج دراسة الحالة على أنه استقصاء إمبريقي يدرس ظاهرة جديدة بعمق وضمن سياق حياتها الفعلية، وحيث تكون الحدود بين الظاهرة وسياقها غير واضحة المعالم. هذا التعريف يسلّط الضوء على كيفية اختلاف دراسة الحالة عن استراتيجيات البحوث الأخرى(Yin, 2009, p. 18). فمثلا تقوم التجربة بفصل الظاهرة عن سياق حياتها الفعلية، وتسيطر بيئة المختبر على السياق. وتحاول تقنيات المسوح تحديد الظاهرة موضع الدراسة إلى مجال ضيق يكفي لتحديد عدد المتغيرات التي سيجري اختبارها(ويمر & دومينيك, 2013, p. 254). ويتضمن البحث بطريقة دراسة الحالة حالات فردية ودراسات على مدى مدة زمنية طويلة، وهي ليست طريقة لجمع البيانات، لكنها قالب بحثي يستخدم طرائق عدة لجمع البيانات ويحللها في سياقات مختلفة(سوتيريوس، 2017، ص. 376).

ويعرفها فان دالين كنوع من البحث المتعمق عن العوامل المعقدة التي تسهم في فردية وحدة اجتماعية ما – شخصا كان أو أسرة أو جماعة أو مؤسسة اجتماعية أو مجتمعا محليا-. فمن خلال استخدام عدد من أدوات البحث، تجمع البيانات الملائمة عن الوضع القائم للوحدة وخبراتها الماضية وعلاقتها مع البيئة. وبعد التعمّق في العوامل والقوى التي تحكم سلوكها، وتحليل نتائج تلك العوامل وعلاقاتها، يستطيع المرء أن ينشئ صورة شاملة ومتكاملة للوحدة كما تعمل في المجتمع(ديوبولد، 1997، ص. 313).

ويعرفها سمير محمد حسين على أنها اختيار عدد محدود من الحالات أو المفردات الممثلة ودراستها دراسة شاملة متعمقة مستوعبة بهدف الوصف والفهم الكاملين لكل حالة على حدة ولجميع العوامل المتشابكة والقوى الداخلة في كل منها والعلاقات بينها، ومدى الترابط بين هذه العوامل، وكذلك بهدف التعرف على كل الخصائص العامة لجميع الحالات أو المفردات تحت البحث، واكتشاف نوع الخصائص المشتركة بين هذه الحالات، والخصائص التي تنفرد أو تتميز بها مفردة أو حالة واحدة أو عدد محدود من الحالات والمفردات(محمد، 1983، ص.140).

وبحسب ستيك (Stake, 1995) هناك ثلاثة أنواع من دراسة الحالة: الجوهرية والأداتية والجمعية. تُجرى الدراسة الجوهرية في العادة لأجل ذاتها، أي إنها تجرى لمعرفة هذه الحالة وحدها. لذلك لا يتوقع أن تكون النتائج قابلة للتعميم على حالات مماثلة. أما الدراسة الأداتية فتُستخدم للبحث في قضية اجتماعية أو لتحسين نظرية، وفي هذه الدراسة تكون النتائج قابلة للتعميم على نطاق أوسع من نطاق الحالة المدروسة. وأخيرا، تتضمن الدراسة الجمعية عددا من الدراسات الفردية التي تُبحثُ معا بهدف التعمق في قضية معينة أو ظاهرة أو وضع. وتشتمل هذه الدراسة عادة على دراسات عدة من النوع الأداتي(سوتيريوس، 2017، ص ص. 377-376).

2- خصائص منهج دراسة الحالة

أوردت شاران ميريام (Sharan Merriam, 1988) أربع خصائص أساسية لبحوث دراسات الحالة:

1- خصوصية: وهذا يعني أنّ دراسات الحالة تركز على وضع معين، أو حدث، أو برنامج، أو ظاهرة، جاعلة منها أسلوبا جيدا لدراسة مشكلات عملية من الحياة الواقعية.
2- وصفية: النتائج الأخيرة لدراسة الحالة هي وصف تفصيلي للموضوع قيد الدراسة.
3- كاشفة عن مجريات الأمور: تساعد دراسة الحالة الناس على فهمما تمت دراسته. فتفسيرات جديدة، ومنظور جديد، ومعنى جديد، ونظرة ثاقبة جديدة، كل هذه أهداف لدراسة الحالة.
4- استقرائية: تعتمد معظم دراسات الحالة على التعليل أو الاستدلال الاستقرائي. وتنبثق المبادئ والتعميمات من تفحص البيانات. وتحاول دراسات حالة كثيرة اكتشاف علاقات جديدة عوضا عن التحقق من الفرضيات الموجودة(ويمر ودومينيك، 2013، ص.254).

وتذكر جول وزميليها (Gall, Gall, and Borg, 2005) الخصائص التالية لدراسة الحالة:

- دراسة أمثلة معينة: إذ أن الغرض من دراسة الحالة هو إلقاء الضوء على ظاهرة معينة تشتمل على مجموعة من العمليات أو الأحداث أو الأفراد أو أشياء أخرى ذات أهمية للباحثين.
- الدراسة المتعمقة للحالة: وتتضمن دراسة الحالة جمع كمية كبيرة من البيانات عن الحالة أو الحالات موضوع الدراسة والتي تختار لتمثيل الظاهرة. وهذه البيانات هي عبارات لفظية أو صور أو أشياء مادية، ومن الممكن كذلك جمع بعض البيانات الكمية. وتجمع البيانات عادة على مدى فترة زمنية طويلة باستخدام عدة طرق لجمع البيانات.
- دراسة الظاهرة في بيئتها الطبيعية: يعرف جيروم كيرك ومارك ميلر (Kirk and Miller, 1986) البحث الكيفي بأنّه ملاحظة الناس في أماكنهم الخاصة والتفاعل معهم بلغتهم، وبشروطهم. والتزاما بهذا التعريف فإنّ دراسة الحالة تستلزم بالضرورة العمل الميداني، حيث يتفاعل الباحثون مع المشاركين في البحث في مواقفهم الطبيعية.
- تمثيل وجهة نظر كل من المشاركين والباحثين: إذ تسعى دراسات الحالة إلى فهم ظاهرة معقدة كما مرت بخبرة المشاركين فيها. وبمعنى آخر يجب على الباحث أن ينظر للظاهرة كما ينظر إليها أفرادها(محمود أبوعلام، 2006، ص ص. 299-297).

3- خطوات منهج دراسة الحالة

يذكر روجر ويمر وجوزيف دومينيك أنّ إجراءات دراسة الحالة لم يتم توثيقها بشكل جيد كما هو الحال مع الأساليب الأكثر تقليدية للمسوح والتجارب. ومهما يكن من أمر، فيظهر أنّ هناك خمس مراحل مميزة في تنفيذ دراسة الحالة، وهي:

1- التصميم: الشاغل الأول في تصميم الدراسة هو ماذا نسأل؟ والشاغل الثاني في التصميم هو ماذا نحلل؟

2- الدراسة الاستكشافية: وتستخدم الدراسة الاستكشافية لتحسين كل من تصميم البحث والإجراءات الميدانية.

3- جمع البيانات: من الممكن استخدام ما لا يقل عن أربعة مصادر للمعلومات (تقنيات) في دراسات الحالة، وهي: الوثائق، والمقابلة، والملاحظة، والمواد المُصنّعة المادية.

4- تحليل البيانات: يقترح روبرت ين (Robert Yin, 2009) خمس استراتيجيات تستخدم لإرشاد الباحثين في تحليل البيانات وهي: استراتيجية مطابقة النماذج، ؛ وبناء التفسير؛ وسلسلة الوقت؛ ونماذج المنطق، التركيب فيما بين الحالات(Yin, 2009, p. 136).

5- كتابة التقرير: يأخذ كتابة التقرير أشكالا عديدة. يمكن أن يتبع شكل الدراسات البحثية التقليدي: المشكلة، والمنهج، والنتائج، والمناقشة. أو يمكن أن يستخدم طريقة غير تقليدية، فبعض دراسات الحالة يناسبها الترتيب الزمني، في حين أن دراسات الحالة المقارنة يمكن كتابتها من المنظور المقارن(ويمر ودومينيك، 2013، ص ص.259-256).

4- مزايا وعيوب منهج دراسة الحالة

المزايا

- تسمح دراسات الحالة بإجراء بحوث معمقة.
- تولد معلومات مباشرة، لكونها تُجرى في سياقات طبيعية.
- تستخدم طرائق تشجع التعارف والتقارب مع أفراد العينة.
- تسمح باستخدام طرائق ومصادر مترابطة متعددة.
- تقتضي اتصالات طويلة الأمد وخبرات شخصية في الميدان.
- تركز على خبرات حياتية مباشرة وقابلة للإثبات.
- تولد معلومات تغطي الوحدة كاملة وليس مجرد جوانب محددة منها(سوتيريوس، 2017، ص. 384).

العيوب

- النقص الحاد في الصرامة العلمية في الكثير من دراسات الحالة.
- تستغرق دراسة الحالة في الغالب وقتا طويلا، وقد تنتج أحيانا كما كبيرا من البيانات يصعب تلخيصها(ويمر ودومينيك، 2013، ص. 256).
- تنطبق النتائج على وحدة الدراسة فحسب ولا تسمح بإجراء تعميمات استقرائية.
- لا يمكن تكرار البحث.

- إمكانية محدودة للوصول إلى الميدان وإلى المعلومات الشخصية والذاتية التي تشكل أساس بحوث دراسة الحالة(سوتيريوس، 2017، ص. 385).